

التحوّلات المعرفية في النظرية النقدية الاجتماعية

نهال علي محمد المصبيح*

تاريخ قبول البحث 2018/10/6

تاريخ استلام البحث 2018/8/18

ملخص:

هدفت الدراسة إلى تسليط الضوء على النظرية النقدية الاجتماعية ببعدها المعرفي عند مدرسة فرانكفورت، بتتبع تلك التحوّلات المعرفية الزامية إلى نقد الواقع الاجتماعي، وذلك للكشف عن الغموض والاضطراب الذي خلفته الحروب العالمية وكل ما يستدعي تعطيل الفكر، بدءاً من الشعور بالحاجة إلى تأسيس نظرية نقدية ذات فضاء أكثر اتساعاً من النظرية التقليدية؛ إذ يتمحور فيها العقل للكشف عن تناقضات المجتمع من خلال التطرق إلى جدلية التنوير التي أسهمت في فهم منطق حركة العقل والحضارة في العقلانية الغربية، ومن ثم الانتقال إلى التأكيد على قيمة العقل التحررية من خلال الجدل السلبي، فالتحوّل إلى نقد الاتجاه الوضعي لإبراز دور الفلسفة برفض عقلانية ما بعد التقنية، وأخيراً إكساب مصطلحات جديدة للتحليل والمعرفة والعلوم المرتبطة بالمصالح والأنشطة. وفي هذه الدراسة تم اتخاذ كل من المنهج التحليلي التاريخي الذي يقوم على تحليل المفهوم أو الفكرة وتبيّن كيفية تطبيقها للوصول إلى المبدأ الكامن وراءها في تحليل المعرفة الإنسانية، كما تم الاستعانة بالمنهج النقدي لرصد أوجه الالتقاء والاختلاف بين الفلسفات في تحولاتها المعرفية والفلسفية.

الكلمات المفتاحية: التحوّلات المعرفية، النظرية النقدية الاجتماعية، العلوم الوضعية، العقلانية الأدواتية، مدرسة فرانكفورت، يورغن هابرماس.

* كلية التربية الرياضية/ الجامعة الأردنية/ الأردن.

The Cognitive Transformation in the Social Critical Theory

Nehal Ali M. Almusaibeh*

Abstract:

This study sought to highlight the cognitive dimension in social critical theory at the Frankfurt School, by tracking the cognitive transformations which aimed to monetize the social reality in order to reveal the mystery and confusion left by world wars and every reason that disable the thought, starting from feeling of the need to establishing a critical theory greater than traditional theory, where built in the mind to explore the society's contradictions by addressing the dialectics of enlightenment that contributed to understanding the movement's logic of mind and civilization in western rationality, then move on to emphasize the value of libertarian mind through the negative dialectics, then switch to criticism the positive trend in order to demonstrate the philosophy role by rejecting post-technical rationality and finally the imparting new terms for the analysis, knowledge and sciences associated with the interests and activities. In this study the historical analytical approach was adopted, based on the analysis of the concept or idea and explore how to apply to reach the underlying principle in analysis the human knowledge, also, the criticism methodology was used to observe the similarities and differences between philosophy in its cognitive and philosophical transformation.

Keywords: Cognitive transformation, Social Critical Theory, Positivism science, Instrumental Rationality, Frankfort School, Jürgen Habermas.

المقدمة

ما زالت الفلسفة حتى يومنا هذا قابضة في أحجية الأنطولوجيا ومعرفة الكون وأصله، في محاولة منها لجعل السلوك الإنساني ملائماً ومتوافقاً مع تلك المعرفة والأصول، فلقد كانت للفلسفة منذ بدايتها سمة نقدية؛ لأنها ربطت بين الأنطولوجيا والحياة العملية، إلا أن أولوية الأنطولوجيا أدى بها إلى انزلاق سريع مبتعدة عن موقفها التاريخي ودورها في إمكانية المعرفة، تاركة ذلك للمجالات العملية الأخرى. إذ أخذ بعض الأنطولوجيين بتمجيد كيانات طوبائية ومتعالية مثل: الله والروح وجعلتهم في مكانة جليلة يصعب الوصول إليها وامتنع أيضاً علماء الطبيعة من تفحصهم بدقة وهذا ما تسبب في فقدانها الطابع النقدي، فالأنطولوجيا أكثر المباحث قابلية للابتعاد عن الإنسان؛ لما تتضمنه من قوانين ومبادئ، فبالتالي انحصرت تصورات الإنسان عن نفسه وطموحاته وعن مجتمعه الذي يستقي منه تاريخه الطبيعي والاجتماعي على الكون والوجود فقط. Alkhouni, 2006, p: (22)

تُعد مدرسة فرانكفورت من المدارس الراسخة في الفلسفة المعاصرة فقد ركزت دعائمها عبر مرحلتين أساسيتين مع جيلتين مختلفين بالطرح، وذلك من خلال تأسيس نظرية نقدية جديدة للإنسان والعالم من ناحية، وكذلك إرساء منهج تحليلاتي لاستيعاب المشكلات الاجتماعية من ناحية أخرى. ولتجاوز النظريات التقليدية اتخذت المدرسة من النقد أساساً لها فهو تقليد ألماني بدى جلياً مع ايمانويل كانت Immanuel Kant (1724 – 1804) عندما أراد أن يمايز بين المعرفة العلمية الصحيحة والمعرفة الميتافيزيقية، ظهر ذلك خاصة في كتبه الرئيسة الثلاثة، نقد العقل الخالص (1781) ونقد العقل العملي (1788) وكتاب نقد ملكة الحكم (1790). كما تضافرت جهود روادها المنظرين الاجتماعيين والفلاسفة والاقتصاديين والتاريخيين وكذلك المتخصصين بالتحليل النفسي بانسجام، ومن أهم المنظرين النقديين الأوائل ماكس هوركهايمر Max Horkheimer (1895–1973) وثيودور أدورنو Theodor W. Adorno (1903 – 1969) وهيربرت ماركوز Herbert Marcuse (1898–1979). (Adorno, Horkheimer, 2006, p: 33)

الأسس التي قامت عليها النظرية فهي:

الأسس الفلسفية: وكان ذلك من خلال إعادة قراءة لتاريخ الفكر الغربي انطلاقاً من ايمانويل كانت ومروراً بالمنطق الجدلي لفيرديريك هيغل Georg Wilhelm Friedrich Hegel (1770–1831).

الأسس السوسيولوجية: التأثير الماركسي - كارل ماركس (1818-1838).
 التأثير الفيبري: تأثير كتابات ماكس فيبر (Maximilian "Max" Weber 1864-
 1920) حول العقلانية. (Affayah, 1998, p: 44).

المنطلقات الفكرية النقدية كانت من خلال:

- نقد النزعة الوضعية الحديثة والتجريبية وأنساقها، والتي تحولت إلى إيديولوجيات شمولية تنظم علاقات الإنسان بالإنسان والإنسان بالمجتمع.
- نقد المجتمع الاستهلاكي.
- نقد الإيديولوجيا.

يعد يورغن هابرماس Jürgen Habermas (- 1929) أبرز ممثلي النظرية في مرحلتها المعاصرة، إذ شهدت النظرية تحولاً في بعدها الاستومولوجي بنقده للمعرفة، فلتجنب أخطاء الفلسفة الترانسندننتالية وغيرها من الادعاءات اعترف هابرماس في دفاعه عن دور الفلسفة الكبير والمهم في التفسير والنقد وتحليل العقل للمعرفة والفعل والقول، إذ انتقد كل الأخطاء التي جاءت في الانموذج (Paradigm) ايمانويل كانت وهيغل والتي جعلت من الفلسفة مجالاً متعطراً لا يمت للتجربة ولا بالجانب العملي بأي صلة، إلا أن إيمانه بمثل التنوير مثل: الحرية والعدالة وتحقيق السعادة وقوة العقل التي من شأنها تغيير المجتمع وإبعاد الشرور عنه، فالفلسفة لوحدها ليس لها الحق في الإصلاح الاجتماعي فكل المجالات مثل العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية يجب ان تعمل بانسجام لتحقيق الهدف انطلاقاً من المأزق الحالي للفلسفة، لهذا أراد تناول المشكلة من عدة زوايا لإيجاد إطار معرفي (براداييم) ليس معني بالفلسفة فقط إنما أراد ممارسة (براكسيس) توجه النشاط الإنساني، براداييم يساعد في إبراز بعض الشروط اللازمة لإقامة شكل من أشكال الحياة العقلانية.

لقد كان المنعرج اللغوي عند هابرماس هو ذلك التحوّل المنشود باعتبار أن اللغة هي أداة للتواصل تتمتع بها كل طبقات المجتمع بغض النظر عن أي اختلاف أو تفريق بين تلك الطبقات، وبهذا استبدل هابرماس براداييم ماركس المتمثل بالإنتاج باللغة؛ التي هي خزان للماضي وعلامة أساسية للحاضر وتشير دائماً إلى المستقبل، فاللغة متبدلة وخطابية وتستخدم من قبل كل الناس وهي ذاتية بالطبيعة وفعالة تمنع تجسد المجردات والجمود (Habermas, 1979, p: 52).

مشكلة الدراسة:

للفلسفة الحق كسائر العلوم في الإصلاح الاجتماعي، فهي تكشف عن شروط إمكان المعرفة والفهم والفعل فأصبح لها دور في التحرر الاجتماعي من القيود اللاواعية التي تعيق التأمل الذاتي لذا يجب أن تجد لها مستقراً في الحياة اليومية وتحافظ على رابطها فيها فكان لزاماً على الفلسفة بنظرياتها ومفاهيمها بإحداث فارق في حياة الناس وفي تجاربهم في عالم الواقع. ومن هنا جاءت هذه الدراسة لتسليط الضوء على النظرية النقدية التي تأسست نتيجة للاضطرابات التي حدثت في القرن العشرين بسبب الحروب العالمية الدامية فأخذت على عاتقها متابعة المشروع النقدي الذي قدمه الفيلسوف الألماني ايمانويل كانت، وذلك بتأصيل مفهوم النقد و لكن من منظور جديد في محاولة لإحداث تحوّل تنويري يُسهم بقيام فلسفة نقدية تعيد بناء المجتمع الألماني بما أسموه بالعقلانية النقدية، لذا كان لابد من الوصول إلى فهم حقيقي لهذه المجتمعات ولمسارها التاريخي من خلال تتبع أساليب وفلسفات النقد الاجتماعي لمؤسسي النظرية لكل ما يستدعي تعطيل الفكر في محاولة منهم لكسر القبضة الخانقة للمفاهيم والمعرفة الخاطئة التي أفقدت العقل دوره في إمكان التحرر بل والتي أرسّت أيضاً منهجية تحكيمية باسم العلوم والتكنولوجيا. ومن هنا جاءت هذه الدراسة للتعرف إلى التحولات المعرفية في النظرية النقدية الاجتماعية.

لقد انطلق البحث في التنوير بما هو رمز للحدثة الغربية ومن المبادئ الإنسانية التي قامت عليها مثل العقل والحرية واحترام الشخصية الإنسانية، والرجوع إلى ما قبل الحدثة للوقوف أمام حقيقة نسيان العقل للنظر العقلي أو التفكير ثم حصل فقدان وعيه بذاته ليتحول بعدها إلى وسيلة هيمنة وقمع يستخدمها اللاعقل. وأمّا النواة التي أراد النقد بلوغها عند غوصه في طبقات ماضي العقل هي انبثاقه من الأساطير والخرافات وبالتالي تصبح الخرافة عقلاً والطبيعة موضوعية صرفة ما يجعل العقل باسطاً سيطرته على حدود معرفته فما بدا جلياً في تاريخ العقل هو ابتعاده عن الميثادولوجيا التي سببت تماهياً بين المعرفة والسلطة فضلاً عن ما يقوم به العقل من موضعية تامة للطبيعة بمعنيها، فجدلية التنوير لا تحصر معنى الطبيعة فيما هو خارجي عن الإنسان بل تضيف إليه معنى الطبيعة البشرية.

إن تطور المعرفة بشكل متوازٍ مع تنامي الهيمنة عليها ضمن معقولة أدواتية وبرغاماتية. أصبح الناس غرباء عن الطبيعة الخارجية وحتى عن طبيعتهم البشرية مما أدى إلى تحوّل الأفراد إلى روبوتات، فهم يزدادون عجزاً عن الإتيان بأي فعل سوى إطلاق الأحكام التقنية أو العاطفية بل

وأصبح التصرف وفق الضمير وتخيّل مجتمع حرٍ أكثر صعوبة من أي وقت مضى، بل وزادت جاذبية الشمولية. وفي هذا إشارة إلى النقد المبكر للمادية المبتذلة والميتافيزيقا الحدسية. "وبالنسبة للوضع التي اتخذت صفة العقل المتنوّر فإن كل رحلة في العوالم العقلية ليست محرمة وحسب، بل هي محض ثرثرة لا معنى لها" (Adorno and Horkheimer, 2006, p:47) جعلت من العالم عبارة عن حقائق جاهزة الصنع ومنفصلة عن الإطار الاجتماعي. بالتالي تقول النظرية النقدية أنه لا يمكن للوعي حتى أن يتصوّر لأن الفرد ظلّ مجهولاً في علاقته بالأشياء أو بالموضوع فكان لزاماً رفض استقلالها الاجتماعي لعدم تمكنها من التعبير عن نماذج السلوك الاجتماعي. كما يؤكدان على أن الوضعية أدت إلى انخراط العقل بالميثولوجيا (اللاعقل) ومن هنا جاءت هذه الدراسة التحوّلات المعرفية في النظرية النقدية الاجتماعية.

أسئلة الدراسة:

حاولت الدراسة الإجابة عن السؤال الرئيس الآتي: ما التحوّلات المعرفية في النظرية النقدية

الاجتماعية؟

أهداف الدراسة:

هدف هذه الدراسة التعرف إلى الآتي:

1. تقصي أسباب التحوّلات المعرفية في النظرية النقدية الاجتماعية.
2. معرفة أساليب النقد التي اتخذها منظروها في النقد الاجتماعي.
3. الكشف عن مراحل تطور النظرية حسب الظروف الحادثة في المجتمع.
4. تحديد أهم التحوّلات المعرفية في النظرية النقدية الاجتماعية.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة في تحديد الأسباب والمعالم الفلسفية التي شكلت النظرية النقدية الاجتماعية ومن ثم تطوّرها من خلال التحوّلات المعرفية التي تضمنتها، فضلاً عن التعرف إلى النقد الاجتماعي الذي اتخذ منظروها ومواطنه في المجتمع. كما تكمن أهمية الدراسة في تنمية الوعي الاجتماعي بأهمية الفكر النقدي كقيمة عقلية تحررية وإبراز دور الفلسفة برفض عقلانية ما بعد التقنية التي تدّعي بجوهرية العلم ولتجاوز البريق الخادع الذي يوحي به الوعي المهيم.

منهج الدراسة:

تم اعتماد المنهج التحليلاتي التاريخي الذي يقوم على تحليل المفهوم أو الفكرة وتبين كيفية تطبيقها للوصول إلى المبدأ الكامن وراءها في تحليل المعرفة الإنسانية، كما تم الاستعانة بمنهج النقد لرصد أوجه الالتقاء بأوجه التقاطع بين الفلسفات في تحولاتها المعرفية والفلسفية.

1. أسباب التحولات المعرفية في النظرية النقدية: ارتبط ظهور مدرسة فرانكفورت بأوضاع سياسية واجتماعية شكلت النواة المركزية لظهور النظرية النقدية، وما يميزها هو الجانب النقدي والطابع الاجتماعي معاً فبدت بلون مميز من ألوان النظرية الاجتماعية المتحررة من الأفكار والمفاهيم الميتافيزيقية إذ وجدت بأن النقد هو السلاح لمقاومة العقلانية العلمية المستترة بالإيديولوجيا:

➤ الحاجة التاريخية إلى نظرية نقدية:

النظرية النقدية هو الاسم الذي اصطلح لاحقاً على ما يُعرف بمدرسة فرانكفورت وكانت تُعرف بمعهد الأبحاث الاجتماعية التابع لجامعة فرانكفورت بألمانيا وهي معنّية بالفلسفة الاجتماعية ومشروعها العلمي ومسارها النقدي، وقد تأسست هذه المدرسة نتيجة للاضطرابات التي حدثت في منتصف القرن العشرين بسبب الحروب العالمية الدامية، وفهم السيناريو الذي تكشّف على أثرها وخاصة ما طرأ على المجتمع الألماني من تحولات كفشل حركة العمال التي كان متوقّع مشاركتها في إعادة بناء المجتمع، بل كان فشلها بمثابة جرس إنذار لصعود النازية بوصفها قوة سياسية ضاربة في عمق الحياة الألمانية بكل مستوياتها.

لذا باتت النظرية النقدية بعد ذلك تُشكّل ظاهرة مزدوجة تجمع بين الفلسفة الاجتماعية من ناحية ولكنها اجتماعية -نقدية من ناحية أخرى، كما أنها كانت جزءاً من حركة فكرية أوسع تُعرف بالماركسية الغربية التي تميزت بأنها حركة نقدية تتجاوز الواقع بنقدها له، فصارت الحاجة لهذه المدرسة في التعبير عن الروح النقدية للمجتمع الألماني الذي عايش واقعاً اجتماعياً قاسياً. فضلاً عن ذلك ظهرت النظرية النقدية بوصفها لوناً مميزاً من ألوان النظرية الاجتماعية المتحررة من الأفكار والمفاهيم الميتافيزيقية للتفكير اللاهوتي، فالنقد من منظور مؤسسيها سيُسهّم في بناء المجتمع من خلال تحولٍ تنويريٍ يعيد بناء المجتمع الألماني بعد ما أنهكته الحروب وبعد ما آلت إليه من انعكاسات على مختلف جوانب الحياة من جهة ونقد التنوير وإسقاطاته التي مارست دوراً

أصيلاً للعقل؛ وبهذا تكون الحاجة إلى مفهوم النقد من كونه مفهوماً يخدم القضايا المعرفية إلى مفهوم يخدم المعرفة والمجتمع والإنسان على حد سواء.

تبلور برنامج مدرسة فرانكفورت النقدي عند تولي ماكس هوركهايمر منصب الإشراف عام 1931، فهو يؤكد على قلقه حول طفرة النزعات الاستبدادية والشمولية وهيمنة العلوم المتزايدة على المجالات الأخرى؛ فيقول: "يحركني الوعي أن فكرة الحرية الفردية التي قضت عليها النازية قد تمّ إحيائها في قلوب كثير من الناس لمجرد أن المدرسة موجودة. وإذا كانت الستالينية قد تقلّدت اليوم دور النازية فإنه في حال انتصارها في أوروبا، ليس هناك مجال لأدنى شك أنها ستهدم كل ما بنيناه، وكل ما يمكن أن نتمناه هو أن ننفذ بجلدنا من جلّادي التوليتارية الروسية كما تمكّننا من الانفلات من أيدي النازية. لكن ربما مازال هناك متسع من الوقت حتى نعلّم الشباب من الطلاب معنى الإنسانية كما تعلمناه نحن" (Musaddaq,2005,p:25).

تتبع فلاسفة مدرسة فرانكفورت الغموض والاضطراب الذي خلفته الحروب العالمية وكل ما يستدعي تعطيل الفكر، وجاهدوا لكسر القبضة الخائفة للمفاهيم الخاطئة والتحوير الذي أفقد العقل دوره في إمكان التحرر والتي عملت على إرساء منهجية صماء تحكّمية باسم العلوم والتكنولوجيا، فكانت مهمة النقد الأساسية هي إيجاد العلاقة السليمة بين النظرية والممارسة بعد تخلص الأولى من الايديولوجيا والثانية من الثورة عندما صاغ هوركهايمر النظرية النقدية لنقد الايديولوجيا البرجوازية حتى يقدم مبدئاً تفسيرياً ونقدياً لتاريخ الفلسفة، أي مبدأ يوضح المنطق المسير لتاريخ العلاقة بين الإنسان والمجتمع فيؤكد بقوله: "يعبّر هذا الاختلاف الوجودي بين الإنسان والمجتمع عن الصدع الذي ميّز الأشكال التاريخية للحياة الاجتماعية. لقد كان وجود المجتمع دوماً مؤسساً إما على القمع المحض والبسيط أو نتاجاً ميكانيكياً أعمى لتفاعلات قوى متصادمة، وعموماً لم يكن أبداً نتاجاً للتلقائية الواعية لأفراد أحرار. لهذا السبب يتغير معنى مفهومي القابلية "passivite" والفاعلية "activite" وفق تطبيقنا له على المجتمع أو على الفرد. نشاط المجتمع في المنظومة الاقتصادية البرجوازية، أعمى وعيني في حين أن نشاط الفرد مجرد وواع" (Alkhouni,2006,p:85)، فالعلاقة بين المجتمع والإنسان تحدد السبب المانع من أن يكون المجتمع نتاجاً للتلقائية الواعية لأفراد أحرار وعليه تم الكشف عن تأثير هذه العقلنة في النظام الاجتماعي؛ حيث صارت محاينة لتطور البشرية كما أنها استعبادية أكثر مما هي تحررية بسبب

أنها أنتجت عالماً صارماً في ضبطه الإداري يلغي الاختلافات ويستبعد ما هو خاص وينزع عن الفرد كل دلالة (Affayah,1998,p:33).

قيل كل من هوركهايمر وأدورنو وماركوز بنواجٍ عديدة جاءت في المثالية الألمانية مثل أفراد مجال المعرفة في العلوم والأخلاق والفن. فانفقوا مع كانت حول العقل النظري والعقل العملي ونقد الأيديولوجيا والثورة الكوبرنيقية (تعود لـ نيكولا كوبرنيكس الذي أسهم في نشأة علم متحرر من أي إيديولوجيات كانت سائدة في عصره) في حقل الفلسفة، أما هابرماس فقد انتقد كانت بكفاءة ففصل بين حقول المعرفة ومجالاتها آخذاً بالخاصية الأولى التي نسبها كانت للنقد، وهي أن النقد عبارة عن "محكمة تضبط شروط المعرفة وتقرر حدودها من خلال وضع مقاييس تحتمك إليها العمليات المعرفية، ومن ثم يتحول إلى سلطة تشريعية تمثل إنتاجات العقل أمام محكمته الخاصة حيث يعترف له بحقوقه أو تدان ادعاءاته المثالية" (Affayah,1998,p:28) فهو بذلك قد أكد على دور الفلسفة وعمل على توسيع نطاقها ونفى الادعاء بأحادية فضائها.

وحول هيغل الذي استفاد من ثورة كانت النقدية في مجال حدود العقل، إلا أنه نقلها إلى التاريخ الإنساني؛ فبدلاً من نقد العقل لذاته حتى تكون المعرفة ممكنة أصبح النقد موجهاً إلى البحث في دخول العقل بالطبيعة ذاتها ثم تحليله في التاريخ وعلى حد تعبير هيغل "إن الفكرة الوحيدة التي تجلبها الفلسفة معها وهي تتأمل التاريخ؛ هي الفكرة البسيطة عن العقل، التي تقول: إن العقل يسيطر على العالم، بالتالي يتمثل أماننا بوصفه مساراً عقلياً" (Hegel,2007,p:78) تنتهي العلاقة الجدلية عند هيغل بالروح المطلقة التي كان يأمل من خلالها إحداث التغيير من أجل إصلاح المجتمع، أما في الماركسية "فتسير مادية ماركس الفلسفية من المبدأ القائل أن العالم بطبيعته مادي، وأن حوادث العالم المتعددة هي مظاهر مختلفة للمادة المتحركة، وأن العلاقات المتبادلة بين الحوادث وتكيف بعضها بعضاً بصورة متبادلة كما تقرها الطريقة الديالكتيكية، هي قوانين ضرورية لتطور المادة المتحركة، وأن العالم يتطور تبعاً لقوانين حركة المادة، وهو ليس بحاجة إلى "عقل كُلي" (Hanafi,2007,p:24) وعليه فقد سئم ماركس الوضع القائم وأراد أن يستكمل التحول الاجتماعي بسبب الأزمة الحاصلة في الجانب السياسي والاجتماعي وأزمة قوى العمل فعمد إلى قلب الجدل الهيجلي إذ "تبحث كتابات ماركس فيما بين عامي 1844 و1846 م في شكل العمل في المجتمع الحديث من حيث أنه يشكل الاغتراب الكلي للإنسان كما أعلن أن تقسيم العمل الاجتماعي لا يتم على أساس عمل أي حساب لمواهب الأفراد ومصصلحة الكل، بل يحدث وفقاً لقوانين الإنتاج

الرأسمالي للسلع فحسب، وبمقتضى هذه القوانين يبدو أن ناتج العمل، وهو السلعة يتحكم في طبيعة النشاط الإنساني وغايته" (Marcuse, 1970, p:267).

ذهب منظرو مدرسة فرانكفورت مع ماركس بنقده للأيديولوجيا السياسية فهي جانب مهم لأي نظرية اجتماعية لكنهم لم يُسرّوا بالعقلانية التقنية - العلمية المستخدمة في الإنتاج على افتراض تنامي صفة الأدوات مما يؤدي إلى ما أسموه بـ - صناعة الثقافة - فكارثة العقل في عصر التنوير أنه صار نقداً فاصلاً تتضمنه مثل تحلياًتية نزيهة للحقيقة، هذا من ناحيته الطبيعية، ومن ناحية أخرى صار أداة للهيمنة على الطبيعة وعلى الإنسان من خلال الحوكمة التقنية الإدارية والسياسية والإجراءات البيروقراطية، وبهذا تم عزل ما لا يمكن قياس دوره وفاعليته وأصبح الهدف هو النجاح. وقد قادهم هذا التخوف نحو فرضية أخرى تقول بأن محتوى المجتمع أكثر أهمية من بنيته المادية، وشكّل ذلك التخوف تحرراً من النظرية المادية التقليدية والاتجاه نحو النظرية النقدية.

2. معرفة أساليب النقد التي اتخذها منظروها في النقد الاجتماعي: النظام الفكري المتبع عند مدرسة فرانكفورت هو نظام نقدي واقعي يُسقط النقد على الواقع للوصول إلى إمكانية التقدم والتنوير وتجاوز العقبات التي فرضتها طبيعة التقدم التقني ومدى ارتباطها بالتفكير الإيديولوجي وأنماطه السياسية العميقة.

➤ الفرق بين النظرية التقليدية والنظرية النقدية:

عرّف هوركهايمر النظرية بمعناها القوي "هي ربط منهجي للقضايا في شكل استنباط يتمتع بوحدة النسق"، وعرّف العلم بأنه "عالم من القضايا المتأتية عن عمل ما، عمل ضمن النظام المنهجي الذي يتحدد منه عالم من المواضيع" (Horkheimer, 1990, p:7- 8). إن من دواعي انتقاد كل من هوركهايمر وأدورنو للنظرية التقليدية هو هاجسها حول تصنيف الظواهر الاجتماعية المختلفة ووضعها ضمن قوائم؛ أي أن التصور التقليدي مستمد تجريبياً من النشاط العلمي؛ أي أنه كم يُنجز على مستوى محدد في إطار تقسيم العمل، إذ تخلت المبادئ الماركسية فكر هوركهايمر بحيث أن الفلسفة والدين والأفكار الاجتماعية لا يمكن فهمها إلا من خلال تحديد علاقتها بمصالح طبقات المجتمع المختلفة، وبهذا تكون النظرية الماركسية هي النظرية الدالة على الحياة الاجتماعية. بدا أن كارل ماركس قد استجاب لما نادى به كانت في إطار مشروع التنويري حول تجذير النقد، بمعنى الخروج من دائرة العقل وموضوعه الميتافيزيقية كمجال مستقل بذاته إلى الأساس المادي والتاريخي الذي يجعل وجود ميادين العلوم الاجتماعية ممكناً، بل إن تعميق النقد عند

ماركس ليس التراجع به إلى العقل بل بلوغ الأشياء التي لا يتوقف وجودها ضرورة على العقل، مما أدى ذلك في تصويره الهيغلي المبكر إلى تعرية اغتراب الذات الإنسانية في أشكاله الدنيوية بعد أن تمت تعريته في شكله المقدس: من ثم يتحول نقد السماء إلى نقد الأرض، ونقد الدين إلى نقد الحقوق ونقد اللاهوت إلى نقد السياسة، وعليه يكون النقد ليس غاية في حد ذاته إنما وسيلة لبلوغ ما لم نصل إليه بداية وهذه العملية في الحقيقة ترجع إلى الجدلية الهيغلية.

كان نقد كارل ماركس للاقتصاد السياسي يُمتلئ نقداً للعلوم الاجتماعية إذ حطّم القيود التي فُرضت على السلطة الاجتماعية، ومن ثمّ ازداد إصرار رواد مدرسة فرانكفورت على التخلي عن النهج المنغلق في العلوم الاجتماعية والتخلي عن المبدأ الماركسي القائل بأن النضال الطبقي هو محرّك التاريخ ومن ثمّ التحوّل نحو فضاءٍ أكثر مناسبة والتوجه بالنظر في توترات وتناقضات المجتمع والتركيز على نزاع أشمل يقوده العقل نزاع طرفاه: الإنسان والطبيعة الداخلية والخارجية من خلال نظرية جديدة، ويمكن تلخيص الفرق بين النظرية التقليدية والنظرية النقدية كما يأتي:

النظرية التقليدية:

- النظرية التقليدية نظام مغلق طبقاً لقواعد منطق طرفين متنازعين يمثلان ثنائية الخصومة المميّزة للتنظيم الاجتماعي.
- إنها تقترض قيمة محايدة.
- صُمّمت لتحقيق أهداف على غرار العلوم الطبيعية.
- تحدد سماتها من خلال العقلانية الأدواتية - التقنية.

النظرية النقدية:

- تقول النظرية النقدية بحزم بأنه لا يوجد أي موضوع مطلق للمعرفة وأن صدفة الكائن بالموضوع تقع في المستقبل ليس فقط بسبب التقدم الفكري إنما بسبب التقدم الاجتماعي وهذا ما يستدعي إعادة تعريف العلاقة بين الذات والموضوع.
- إن طريقة العلم مختلفة لأن النهايات تحدّد الوسائل أما النظرية النقدية فالوسائل متساوية من حيث الأهمية مع النهايات.
- هي انعكاس لنقد الايديولوجيا ما يجعلها منهجاً تاريخياً لإطار العمل الاجتماعي.
- تترك أهمية البراكسيس كما إيمانها بمُثُل التنوير كالحرية والعدالة والسعادة.

3. الكشف عن مراحل تطور النظرية حسب الظروف الحادثة في المجتمع: إن وظيفة النقد في مجاله الفلسفي بين النقدية الكلاسيكية أو التقليدية الألمانية ومدرسة فرانكفورت تختلف باختلاف الظروف المحيطة بها وذلك لتحسين الواقع الاجتماعي تحسناً يصب في مصلحة تحرير الإنسان من هيمنة القوى المسيطرة على آليات صنع القرار وإمكاناته الإيديولوجية.

➤ هوركهايمر ونقد التنوير:

بيّن كل من هوركهايمر وأدورنو بتجديدهما لنقد العقل وتجزير النقد إلى مستوى يصبح فيه من الممكن إدراك الكل جديلاً وتفسير الأجزاء أي الحقب التاريخية المتتالية لإدراك متناقضاته بفكر فلسفي، كان ذلك تحولاً معرفياً آخر في كتابهما "جدل التنوير" فالفصل الأول يعبر عن التشابك بين المعقولة مع الواقع الاجتماعي وكذلك تشابك الطبيعة مع الهيمنة عليها ولا شك أن التشابك الثاني ليس بمنفصل عن الأول، والمؤلف يعبر عن الأطروحتين الآتيتين: "قلاسطورة بالذات نفسها قد صارت تنويراً، والتنوير قد يتحول إلى الميثولوجيا" (Adorno, 2004, p:19) وتدعم هاتين الأطروحتين بأمثلة في استطرادين أولهما جدلية الأسطورة والعقل في الأوديسة بوصفها أول دليل يُمثل الحضارة البورجوازية الغربية. ويهتم الاستطراد الثاني بكانت ونبشته اللذان قادا العقل إلى أقصى استتبعاته، أما الهدف من ذلك فهو محاولة جادة للبحث عن جواب السؤال: لماذا تتهاوى البشرية في شكل جديد من التوحش بدل الانخراط في ظروف تكون حقاً إنسانية؟ ويبدو الدافع لطرح هذا السؤال الجوهرية في ظاهرة اندماج الطبقة العمالية داخل النظام الرأسمالي وانطفاء وعيها الثوري وبسبب صعود النازية كامتداد للرأسمالية ونجاحها في الهيمنة السياسية والايديولوجية في أوروبا. لا شك أن وجود أعضاء مدرسة فرانكفورت خلال هذه الفترة بالمهجر يدل على بعض هذه الظاهرة.

لقد انطلق البحث في التنوير بما هو رمز للحادثة الغربية ومن المبادئ الإنسانية التي قامت عليها مثل العقل والحرية واحترام الشخصية الإنسانية، والرجوع إلى ما قبل الحداثة للوقوف أمام حقيقة نسيان العقل للنظر العقلي أو التفكير ثم حصل فقدان وعيه بذاته ليتحول بعدها إلى وسيلة هيمنة وقمع يستخدمها اللاعقل. وأما النواة التي أراد النقد بلوغها عند غوصه في طبقات ماضي العقل هي انبثاقه من الأساطير والخرافات وبالتالي تصبح الخرافة عقلاً والطبيعة موضوعية صرفة ما يجعل العقل باسطاً سيطرته على حدود معرفته فما بدا جلياً في تاريخ العقل هو ابتعاده عن الميتادولوجيا التي سببت تماهياً بين المعرفة والسلطة فضلاً عن ما يقوم به العقل من موضعية تامة

للطبيعة بمعنيها، فجدلية التنوير لا تحصر معنى الطبيعة فيما هو خارجي عن الإنسان بل تضيف إليه معنى الطبيعة البشرية.

ولمّا كان تطور المعرفة الموضوعية بالطبيعة متوازٍ مع تنامي الهيمنة عليها ضمن معقولة أدائيّة وبرغامتيّة أسقطت التفكير بالحقيقة وفي الغايات السامية أصبح الناس غرباء عن الطبيعة الخارجية وحتى عن طبيعتهم البشرية مما أدى إلى تحوّل الأفراد ببساطة إلى روبوتات فما يحدث هو شكل مشوّه من الاستغلالية التكنولوجية والعلمية اللتان باتا تؤديان إلى منطقة شمولية للأفراد يزدادون عجزاً عن الإتيان بأي فعل غير إطلاق الأحكام التقنية أو العاطفية بل وأصبح التصرف وفق الضمير وتخيّل مجتمع حر أكثر صعوبة من أي وقت مضى، بل وزادت جاذبية الشمولية. كان في هذا إشارة إلى النقد المبكر للمادية المبتذلة والميتافيزيقا الحدسية. "وبالنسبة للوضعية التي اتخذت صفة العقل المنتوّر فإن كل رحلة في العوالم العقلية ليست محرمة وحسب، بل هي محض ثرثرة لا معنى لها" (Adorno and Horkheimer,2006, p:47) جعلت من العالم عبارة عن حقائق جاهزة الصنع ومنفصلة عن الإطار الاجتماعي. بالتالي تقول النظرية النقدية أنه لا يمكن للوعي حتى أن يتصوّر لأن الفرد ظلّ مجهولاً في علاقته بالأشياء أو بالموضوع فكان لزاماً رفض استقلالها الاجتماعي لعدم تمكنها من التعبير عن نماذج السلوك الاجتماعي. كما يؤكّدان على أن الوضعية أدت إلى انخراط العقل بالميتولوجيا (اللاعقل) فيما يأتي:

- تقديس الواقعة: "إن إخضاع كل حقيقة واقعة إلى الشكلانية المنطقية التي تبدو كما لو كانت عقلانية ذاتية إنما تكتسب بفضل خضوع العقل الهادئ لما هو معطى مباشر" (Adorno,2004,p:48). فيقدر ما تخضع الآلية العقلية لما هو موجود بقدر ما تعيد إنتاجه بشكل أعمى ويصبح الفكر تحصيل حاصل.
- التعامل الطقوسي مع الرياضيات: "العلاقة الرمزية بين الواقع والحدث الأسطوري الذي يتجلى في الشعائر أو في مقولات العلم المجرد تظهر كما لو كان مرسوماً بشكل مسبق، أي بالواقع كما لو كان إعادة إنتاج للماضي" (Adorno.T and Horkheimer.M,2006,p:49).
- فكل ما لا يطابق معايير الحساب والمنفعة يكون في موضع الشك والظن من قبل العقل.
- إقصاء الفن والدين إلى درجة الشأن الشخصي فلا دخل للعلم فيه، كما الوقوع في تناقض حول الفلسفة بين اعتبارها شأناً ذاتياً وردّها إلى العلم أو اعتبارها علماً.

- تؤكد العقلانية الحديثة بأن التقنية هي جوهر العلم، لأنه لا يسعى إلى إنشاء مفاهيم وصور ولا يسعى إلى تحقيق سعادة المعرفة إنما يستثمر عمل وجهدهم الآخرين ليكون رأس المال فقد "أعطت الإحيائية روحاً للشيء، أما الانتماء للصناعة فقد حول روح الإنسان إلى شيء. وبانتظار التخطيط الكلي تعطي الأداة الاقتصادية من ذاتها قيمة للطبائع، قيمة تحدد السلوك" (Adorno.T and Horkheimer.M,2006,p:50).
- ظهر العلم كأداة لتحرر الإنسان من جهة كما ظهر أيضاً أداة للهيمنة عليه واستلاب حريته من جهة أخرى، وبهذا يكون العقل ساحة صراع بين متناقضات وهذا الصراع كشف بدوره عن خطأ الكليات الظاهر في مختلف مستويات العقل الأداتي والبراجماتي (العقل الكلياني) المنغلق، فكان المنهج النقدي الذي جاء في جدلية التنوير سيلاً لفهم منطق حركة العقل والحضارة عبر العقلانية الغربية داخل مجموع الحضارة الغربية وكما بيّن وأكد على أهمية الفكر النقدي المحايث ويعني ذلك إمكانية نفي الواقع بواسطة العقل دون أن ينفصل عنه أو يعلو عليه وبالتالي تجاوز البريق الخادع الذي يوحي به الوعي المهيم.

➤ ثيودور أدورنو والجدل السلبي:

ثيودور أدورنو متعدد الاهتمامات، إذ أن هناك مقولات أساسية تقوم عليها فلسفته في التاريخ وتحليلاته النقدية للوعي الاجتماعي والمعرفة والثقافة والفن في المجتمع الرأسمالي والاشتراكي بوجه خاص والمجتمع بوجه عام، فاهتم بالتعبير عن انكسار الفرد عبر التاريخ الاجتماعي كله والتاريخ المعاصر خاصة لخلو التاريخ من الإشارة إلى معاناة الإنسان المأساوية ومعاناته. يعود أدورنو إلى ماركس وفكرته عن اغتراب الإنسان في ظل العلاقات الرأسمالية والبراجوازية وتصوير نماذج السلوك والتعامل بين الناس، فبناءً على فكرة أن السلع لا تقاس بقيمتها الواقعية التي يحددها الاستخدام إنما بقيمة مجردة يحددها السوق ويرد كل شيء إلى هذه القيمة المجردة فيقارن بأي شيء آخر ويقايس عليه بناءً على ذلك يتم هناك التوحيد بين كائنات مفردة وإنجازات متفاوتة وغير قابلة للتوحيد بينها بل ويتسع هذا المبدأ على العالم كله فيطبعه بالوحدة (الهوية) والشمول أي المقدرة على تصوير استئصال الذاتية في مجتمع خاضع للإدارة الشمولية. ويمتد هذا التعميم والشمولية لكل ما هو جوهرى إلى التفكير والحكم فلا يكون للفرد مضمون لم يكونه المجتمع بسبب انغماسه فيه وفي علاقته بمواضيعه، وهنا نجد أدورنو يبيّن لنا كيف يقوّض نفي - النفي الهيغلي الذي يفترض بأنه ينتج محددات أكثر إيجابية للحرية والاستقلال عبر التشيؤ أو الاغتراب من خلال رؤية مناقضة

لمقولة هيغل الشهيرة - الكلّي هو الحقيقي إذ يصبح "الكل" هو التعبير التصوري المكتفي ذاتياً عن العملية الجدلية بمعنى أنه لا يمكن التعرف إلى الكل إلا من السياق الاجتماعي المسيطر، وهكذا تكون مسيرة العقل الجدلية بالنسبة لأدورنو في تبيينها عكس مقولة هيغل بأن الكل ليس حقاً بل الجدلية هي الوعي الصارم باللاهوية ويبقى على الإنسان أن يخلق هذا الحق ويوجده بنفسه من خلال الجدل السلبي المتمثل في التناقضات والتوترات الكامنة في أساس المجتمع والمتسلطة على التفكير - مبدأ التسلط - والتي تسبب الاختلاف بين المفهوم والموضوع الخاضع له. فالتفكير التصوري هو الذي يحتوي الموضوع ويستوعبه بمثالية، أما بالنسبة إلى أدورنو فهو ينادي بالحفاظ على عدم الوحدة "عدم الهوية" حتى يبلغ الإنسان تفكيراً جدلياً فيصبح هذا الجدل هو الوعي باللاوحدة ولا شك أنها تتحقق بتجاوز المفاهيم بنقيضاتها فيقترب الجدل مما يخلو من كل مفهوم حتى يستغرق الوعي بصورة واعية في الظواهر التي يتصل بها أو يدخل معها بعلاقة وعلى حد تعبير أدورنو: "إن الفلسفة هي المجهود المتناقض المتمثل في قول ما لا يمكن قوله، عبر التوفيق والسياقية" (Bronner,2016,p:97).

هدف ثيودور أدورنو بالجدل السلبي إلى الإبقاء على اختلاف الآخر والاحتفاظ عليه وهو هدف لا يتحقق على المستوى الفردي إنما على مستوى الإنسانية حتى تتحرر من الاغتراب عن الأشياء والناس بعدها تجد سعادتها واختلافها عن الآخر، فهو يؤكد على اللاهوية بين الذات والموضوع والفرد والمجتمع وبين الخاص والعام، ويتضح هذا الهدف من خلال:

- التسليم بأولوية الموضوع.

- رفض التفكير النسقي.

الجدل السلبي هو امتداد لجدل التنوير باعتبار أنهما "نقد للنسق وتذكير بما يوجد خارجه" (Adorno,2004,p:34) ففوة السلب أو النفي قادرة على تفجير ما لا يمكن حله، ولما كان نقد العقل الأنواري وكشف المظاهر البربرية للعقلانية وإدانة سيطرة الدولة في أشكالها الحديثة كان من الضروري إعادة تنشيط السلب في الفكر وتجديد القوة المثالية واستثمار قيمة العقل التحررية بدل الاستسلام لما يعيق حرية الفرد ويقيد تحركه، فليس هناك حقيقة كامنة في الممارسة الجماعية سواء في فهمها الهيغلي أم الماركسي، إذ "ترفض المثالية الاعتراضات المتأنية من الخارج بما هي تخص فلسفة التأمل وبما هي قبل جدلية. بيد أنه ليس على التحليل أن يستقيل إزاء هذا الخيار فالمحاثة هي كلية مواقف الهوية هذه التي يتحوّل خلالها مبدؤها إلى لا شيء داخل نقد

محايت" (Adorno,2004,p:22) أي أن النقد المحايت يستعمل ضد المثالية نفس سلاحها، فهو يسعى إلى التحرر من سلطة المفهوم من خلال المفهوم ذاته وهذا ما قد يُعرّض النظرية النقدية للنقد لانتسابها إلى المثالية الألمانية إلا أن في ذلك اعتناقاً وتحرراً من أزمة العقل كما التخلّص من انغلاق النظرية المادية.

إن اليأس من مقدرة الطبقة العاملة على قيام ثورة لتغيير مجرى تاريخ الحضارة الغربية قد أحدث شرخاً عميقاً في علاقة النظرية بالبراكسيس مما أدى إلى انسداد باب الأمل في تحقيق عالم أفضل وأيضاً فُقد التاريخ صورة كونه طريقاً للخلاص. إلا أن النظرية النقدية ترى في تصوّرها بتوافق النظرية والبراكسيس " Praxis وتعني الإجراءات والخطوات في تطبيق نظرية ما أو أي شيء كان بطريقة عملية" (Dictionary) Cambridge في المستقبل بشرط أن تكون العوامل الخارجية للمجتمع خاضعة للتغيير، لأن النقد لن يكون موجّهاً لمجتمع يطالب بالعالمية والخلود إنما نقد للمجتمع الرأسمالي الذي يعيق النمو البشري وبما يتضمنه النقد من فعل اجتماعي وفعل عقلائي معاً فتناقضات النسق وثغراته لا يتم الكشف عنها إلا من قبل الفرد الناقد الذي يتساءل حول ما يحيط به من أحداث يفرضها عليه النظام الكلياني.

➤ هيربرت ماركوز والإنسان ذو البعد الواحد:

قدم ماركوز نظرية نقدية موجهة للمجتمع الصناعي - ذو البعد الواحد - في النظام الرأسمالي وحدد دور العقل من خلال تفكيك بنية هذا المجتمع ومؤسساته السياسية ثم أوكل إليها مهمة تغيير الواقع عن طريق الثورة عليه والبحث عن معطيات وقوى جديدة لم تتخرط في مجال الصناعة بعد، إذ رأى بانتقاده للعقل الأدوات instrumental reason بأنه على الرغم من وجود مقدرات عقلانية في المجتمع الصناعي إلا أن النظام الرأسمالي يتسم باللاعقلانية بسبب توظيف العقل في الحضارة الصناعية فصار عقلاً أدواتياً يظهر بجلاء من خلال وظيفة تنميط الحياة بايحاءات أجهزة الإعلام من خلال الدعاية والإعلان ووسائل الاتصال الجماهيري التي تولد احتياجات وهمية جديدة للبشر بالترويج للسلع حتى تعمل على زيادة الإنتاج، فهذه الاحتياجات لم تنشأ من داخل الفرد إنما لأسباب تقنية واقتصادية وأصبح الإنسان ذو البعد الواحد هو ذاك الذي استغنى عن الحرية بوهم الحرية.

لقد انطلق ماركوز بذلك من حيث ما تم انتقاده في "جدل التنوير" أي من اضمحلال العقل وثورية الطبقة العاملة باندماجها الهيكلية في نظام السلطة، وبالتالي اتفق مع هوركهaimer وأدورنو حول الكف عن توجه النظرية النقدية بخطابها إلى الذات - الطبقة العاملة والبحث عن ذات أخرى

يوجه إليها الخطاب الفلسفي النقدي ليعبر عن رغبتها في التحرر من اغترابها بالتمييز بين حاجات حقيقية إنسانية بقيم متصلة بالواقع الإنساني تُلبى وفق معايير لتجاوز الوضع الراهن، وحاجات أخرى كاذبة تبرر العمل الشاق وتبرر العدوانية والبؤس والظلم الواقع على الفرد المهمش وينتقد ماركوز الاتجاه الوضعي الممّج للمعرفة العلمية التجريبية الذي يستلهم نقطة انطلاقه من علوم الطبيعة ويوصفها نموذجاً لليقين والدقة أنه يبحث عن نظرة موحدة لعالم الظواهر الطبيعية والاجتماعية بذات المنهج العلمي، فإن مصطلح الوضعية يشير إلى:

- "التحقق من صحة الفكر عن طريق تجربة الواقع.
- اتجاه الفكر نحو العلوم الفيزيائية بوصفها نموذجاً لليقين والصحة والدقة.
- الاعتقاد بأن تقدم المعرفة منوط بذلك الاتجاه" (Marcuse,1988,p:197) أي اتجاه العلوم الفيزيائية.

وبحسب ماركوز فإن الوضعية العملية تتصدى النقدية التي ينطوي عليها النفي الفلسفي لما هو معطى وما هو قائم، وعليه يجب: "على كل نظرية نقدية للمجتمع أن تتطرق من البداية لمشكلة الموضوعية التاريخية فهي مشكلة تبرز على مستويين يقتضي التحليل فيهما أحكام قيمة، وهما: أ. أن الحياة البشرية جديرة بأن تعاش، أو بتعبير أدق أنها يمكن أن تكون كذلك ويجب أن تكون كذلك، وهذا الحكم هو أساس كل مجهود فكري ومنطلق كل نظرية اجتماعية، ورفضه (وهذا احتمال منطقي تماماً) يعني رفض النظرية ذاتها. ب. أنه توجد، بالنسبة لمجتمع معين، إمكانات نوعية لتحسين الحياة الإنسانية، وطرق ووسائل نوعية لتحقيق هذه الإمكانيات" (Marcuse,1988,p:27).

إن النظرية النقدية هي "نظرية لنفسها وللقوى الاجتماعية التي تشكل أساسها. إن العنصر الفلسفي في النظرية هو شكل من الاحتجاج ضد النزعة الاقتصادية الجديدة التي قد تعزل الصراع الاقتصادي وتفصل المجال الاقتصادي عن المجال السياسي" (Marcuse,2011,p:164) وبهذه يكون دور الفلسفة التعرف إلى لا عقلانية الواقع ورفض عقلانية ما بعد التقنية الموجهة والمتحكمة بالإنسان، حتى تعاود في الظهور من أجل خدمته وتحقيق سعادته.

4. أهم التحولات المعرفية في النظرية النقدية الاجتماعية: أعطيت الفلسفة روحاً جديدة بوصفها فكراً ناقداً ومتمرداً على كل النزعات التي تدعي الشمولية والكلانية المستمدة من تصورات مثالية ومتعالية، لذا كان لابد من نقد تاريخ الفلسفة وموروثاتها المتنوعة كالتاريخ

الاجتماعي وتاريخ العلوم الطبيعية ومعرفة تأثيراتها على الطبيعة الإنسانية، لذا فقد تميزت النظرية النقدية في هذا التحول بشمولية النقد في محاولة لتصحيح انحراف العقل بعد ما كان مقتصرًا على نقد المعرفة العلمية فقط.

➤ أهابرماس والأساس المعرفي للنظرية النقدية الاجتماعية:

لا شك أن يورغن هابرماس أبرز ممثلي النظرية النقدية في مرحلتها المعاصرة والذي اندمج عمله ضمن إنتاجات رواد المدرسة، فقد عمل على الإشكاليات ذاتها التي طرحها فلاسفة النظرية النقدية منذ إنشائهم للفلسفة الاجتماعية التي ترمي إلى نقد الواقع الاجتماعي، لهذا فإن أهمية أعماله تكمن في الطابع المتجدد الذي أكسبه للنظرية النقدية عبر تقديمه لمصطلحات جديدة للتحليل والمعرفة، فما يميز أعماله الفلسفية أنه وقف جاهداً محاولاً بناء جسر يربط بين النظرية والممارسة أو بين الفلسفة الترانسندنتالية والفلسفة العملية أو بين حقل العلوم التقنية والأخلاق، وجّه نقداً جوهرياً لمدرسة فرانكفورت لتجنّب أخطائها الفلسفية الترانسندنتالية (المتعالية) الكانتية والجدل الشمولي الهيجلي وفي ضوء تحليلاته لكل من فلسفة هوكهايمر وأدورنو اللذان قد وظّفا نقد الايديولوجيا لنقد العقل البروجوازي برمته حتى صار موضعاً للشبهة وبدا كأنه يلغي ذاته بذاته، هذا ما دعا هابرماس إلى نقد العقل في مشروعه الفكري ولكن ليس العقل بمجمله إنما بالبحث عن العناصر العقلانية في الحداثة (عصر التنوير) لنقد الأشكال المتناقضة فيه وهم الموضوعية التي تنسجها العلوم حول طبيعتها، فقد ميّز بدوره بين النظرية بمعناها التقليدي والنظرية بمعناها النقدي وعرض النظرية النقدية محدّداً مفهومها من خلال فلسفة هوسرل في أزمة العلوم الأوروبية والفيينومينولوجيا الترانسندنتالية، فسعى هابرماس من خلال تحليله الكشفي عن وهم النظرية الخالصة التي طالما أراد هوسرل أن ينمّيها وعن العلاقة التي تربط بين الأنطولوجيا التي ينشئها والوضعيات التي ينتقدها، كما سعى إلى بيان ميزة النظرية النقدية في مقدرتها على إنشاء تأمل مزدوج: تأمل السياق الذي أنشأها وتأمل سياق تطبيقها فهذا التأمل تتساءل النظرية عن العنصر غير النظري لنشأتها أو لتأثيرها، ويسمى ذلك - مصلحة - وبهذا أعطى فهماً موسّعاً للعقل وبيّن أن العقل لا يتأمل ذاته وحسب إنما يتأمل المصالح التي تقوده.

بدء هابرماس في تتبع أسباب تغيّر بنية المجال العام لأنه "يشير إلى الوعي المشترك بين الذات، وهو العالم الذي يتضمن الحياة اليومية، وعلاقة الأفراد بعضهم ببعض، والنطاقات غير الرسمية كالعائلة، والثقافة، واللغة، و الحياة السياسية خارج إطار الأحزاب المنظمة، ووسائل الإعلام

الجماهيري، وغيرها" (Habermas,1984,p:125) فما أصاب المجتمع الغربي من تحولات نتيجة تأثير إيديولوجيات الفئة الأقوى بالمجتمع كالأحزاب السياسية والتي تبث أفكارها وتوجهاتها عبر وسائل الإعلام والدعايات والتي أسهمت في التأثير على الوعي الغربي بشكل مبطن حتى صار المجال العام مجالاً للتنافس بين المصالح التي يوجهها العقل، وخلص باتفاقه مع ماركوز حول نقد العقل الأداتي خاصة فيما يتعلق بالمساواة بين مأسسة العقلنة ومأسسة القمع إلا أنه قد اختلف معه من حيث أن التقنية بالنسبة لهابرماس هي مشروع اجتماعي - تاريخي، فالتطور التقني يخضع لمنطق يتبع بُنية الفعل العقلاني الموجه نحو هدف والخاضع لمراقبة النجاح أي بُنية العمل وبمعنى أوضح أن الإنسان يقوم بإنتاج تقنية معينة تحقق له قسطاً من الراحة واليسر وفقاً لاحتياجاته، وطالما أن تنظيم الطبيعة الإنسانية لا يتغير والمحافظة على حياتنا من خلال العمل الجماعي بمساعدة الآلات فكيف لنا التخلي عن التقنية؟ - لهذا "هو يرى أن النظرية النقدية كان يجب أن تدلي بدلوها في أنواع المؤسسات الضرورية لحماية الأفراد من مفاتن التطرف السياسي، من ناحية، وعمليات النهب التي يقوم بها الاقتصاد الرأسمالي المتنامي سريعاً من ناحية أخرى" (Filayson,2015,p:31). من الواضح جداً أنه استبدل قوى الإنتاج بالعلم في المادية - التاريخية للأ نموذج الاجتماعي - لكن المشكلة هي في تفاقم التقدم العلمي والتقني للذات ألغيا عقلانيتهما والهدف منهما وأصبحا يُستخدمان كإيديولوجيا للنظام الاجتماعي الذي صار يجسد اللاعقلانية وهنا تكمن المشكلة. لم يرفض هابرماس في انتقاده الأ نموذج الوضعي السائد للمعرفة فينومينولوجيا الروح الهيغلية في تناقضها الجدلي بل وجدها وبجانب أهمية تفعيل الطاقة النقدية الماركسية بنقدها للإيدولوجيا من أبلغ الصيغ الفلسفية تعمقاً في الظاهرة موضع دراسته في تحليل المجتمع الغربي التقني المعاصر باستناده إلى:

أ. "مقولة العمل ك " نشاط عقلاني" موجّه لهدف وغاية، وهو ينقسم بدوره إلى نوعين: فعل أداتي agir instrumental يخضع لقواعد تقاني 'Technicite'، واختيار عقلاني choix rationnel يننظم وفقاً لاستراتيجيات قائمة على معرفة تحليلية.

ب. مقولة "التفاعل interaction أو النشاط التواصلي كتفاعل اجتماعي، يتم بواسطة مجموعة من الرموز والقواعد الإجبارية التي تحدد ما يتوقعه طرف من سلوك الطرف الآخر؛ وتستمد هذه الرموز معانيها من اللغة الجارية، خزان التجارب أو روح الشعب كما يقول هيغل" (Musaddaq,2005, p: 109).

وبناءً على ذلك وجد أن التحكم والضبط التقني قد تجاوزا على أنموذجين آخرين يقومان على مصالح معرفية أخرى ويعبّر ان عن تطلعات وحاجات وتوجهات تأملية ومعيارية وجمالية، كما أنها عملية ترتبط بإشكالية عقلنة المجتمع والهيمنة على أفرادها، فيقول أن: "المصلحة هي الرضا الذي يربطنا مع تصوّر وجود موضوع ما أو وجود فعل. وهي تهدف إلى الكينونة، لأنها تعبّر عن علاقة الموضوع المعني بمقدرتنا على التمني. المصلحة إما أنها تشترط مسبقاً احتياجاً ما، أو أنها تنتج احتياجاً ما" (Habermas, 2001, p:232- 233)، وعمل على تحرير الوعي الاجتماعي من تأثير العلم وتقنياته بوضع أسس نظرية لممارسة مجتمعية تحررية لإعادة تحديد إشكالية العلاقة بين النظرية والممارسة فصنّف العلوم في أحد كتبه المهمة - المعرفة والمصلحة - (Habermas, 2003, p:146) إلى ثلاثة أقسام بناءً على ارتباطها بثلاثة مصالح مختلفة فكل علم له قواعد منهجية - منطقية ومصالح مكونة للمعرفة فهناك:

أ. "العلوم التجريبية - التحليلية تدخل مصلحة معرفة تقنية"، وهي تقوم على بيانات علمية تحت مظهر الموضوعية فتمكّن من صياغة نظريات قابلة لأن يتم التحقق من صحتها تجريبياً وصياغة هذه النظريات مرتبط باستخدامها تكتيكياً ولا يكون إلا نتيجة لقواعد الأداء التي نقوم بمقتضاها بتطبيق النظرية في الواقع فهي علوم تنظّم مسبقاً خبراتنا في مجال نستطيع فيه ممارسة الأنشطة الأدائية.

ب. "في منطلق العلوم الهرمونوطيقية - التاريخية تدخل مصلحة معرفة عملية"، وهي تنطلق من دراسة ما يحدث وهي علوم لا تزعم موضوعيتها فصلاحيّة قضاياها لا يرتبط بالحكم التكتيكي إنما فهم المعنى هو ما يقيم صلة بيننا وبين الوقائع مما لفت الانتباه إلى أهمية اللغة والأنظمة السيميائية لتحقيق مصلحة عملية وهي التفاعل الإنساني.

ج. "وفي منطلق العلوم المتوجهة نقدياً تدخل مصلحة المعرفة المحررة التي تشكل صورة غير معرف بها أساس النظريات التقليدية"، وهي تنطلق من العلوم المرتبطة بالممارسة مثل علم الاجتماع وعلم السياسة والتحليل النفسي أي التي تصل إلى معارفها من خلال التأمل الذاتي للكشف عن كل ما هو قائم في الواقع.

د. واقع يحد من مقدرة الإنسان على فعل التواصل والتفاعل الإنساني وبهذا يكون لها أن تتحول إلى علوم قائمة على مصلحة في نقد الواقع والتحرر بإجماع حقيقي لأفراد واعين بذواتهم.

ويمكن تمثّل أنواع العلوم وارتباطها بمصالحها بالجدول الآتي:

العلوم	النشاطات	المصالح	الأوساط
التجريبية - التحليلية	العمل	تقنية	الطبيعة
التاريخية - الهرمونتوية	التعامل	عملية	اللغة
النقدية	تأمل الذات لذاتها	تحرّرية	السيطرة

وتتشترك العلوم مع الفلسفة في الانطلاق من هذه المصلحة في مجال العمل وفي مجال اللغة ومجال السيطرة، فالأمر الذي تقوم عليه صياغة نظرية نقدية اجتماعية تحدّد تكوّن الوعي الفردي والجماعي الحر من خلال التأمل الذاتي المحدّد بمصلحة تحرّرية هو التمييز بين "الفعل الأداتي" و"الفعل التواصلية" مؤكداً على "أن الفعل هو نشاط عقلائي بالقياس إلى غاية ، و يعني بذلك أنه إمّا أن يكون نشاطاً أداتياً ، أو اختيارياً عقلائياً، أو تنسيقياً بين الاثنين" (Habermas,1996,p.3) حتى يستطيع الفرد من أن يتحقق من هويته الإنسانية ثم يدرك عملية التشكل الذاتي للتاريخ الإنساني وبالتالي يمتلك الإرادة التي منها يبيلور علاقاته متحرراً من أي اغتراب محققاً استقلالته وانسجامه الجماعي من خلال العقل. لا شك أن هابرماس قام بعملية إعادة بناء للعقلانية مطوّراً إياها إلى بُنى الاتصال والتواصل الهادف للتفاهم بناءً على أسس حوارية هادفة تقوم على الاتصال اللغوي وفي إطار أخلاقي عالمي "وهذه النظرية الاجتماعية تقدم أهداف الانعتاق و التحرر الإنساني ضمن إطار أخلاقي عالمي، تستند إلى حجج براغماتية (تداولية) Universal Pragmatism عبر اللغة والمعنى من خلال الحوار الهادف إلى الفهم المتبادل" (Habermas,1979,p:68).

تُعت المصلحة بالتفكيرية ويكون النقد اداة النظرية التي تكشف عن هذه المصلحة متغلبة على من يكتبها أو يزيّفها. هكذا تكون وحدة المعرفة والمصلحة في جدلية تعيد بناء ما تم كتيه وذلك انطلاقاً من الآثار التاريخية لحوار مكبوت، وبناءً عليه تصبح جدلية التنوير حسب هابرماس مجرد حالة دالة على أزمة الحوار و"أن العملية التنويرية كانت فاعلة في وقت تشكّل الذاتية الإنسانية، والفصل بين الذات والموضوع" (Habermas,1982,p: 19) و من ثمّ قسّم العالم المعاصر إلى عالمين طبقاً لأنواع الفعل:

- العالم الأول يخص العالم المعيش الذي تقوم بنياته على اللغة والتواصل. ويبدو فيه الفعل التواصلية بتفاعله مع موضوعاته والتي تمثل الذوات المتحدثة والمتفاعلة وهي قادرة على الفهم من خلال الرموز.

- العالم الثاني يخص عالم الأنساق الذي يخضع للعقلنة الحسابية التي تتميز بالوظيفية والأدائية والفعالية. ويدوفيه الفعل الأداتي بموضوعاته التي تعد الأجسام المتحركة أنموذجاً له وهذه الأجسام من حيث المبدأ قادرة على المناورة.

كان ذلك هو الإطار المنهجي الذي قدمه هابرماس والذي يقوم على أساس التفكير الذاتي (التأمل الذاتي) لتحديد صحة القضايا النقدية، إذ أن التفكير بالذات يعني المقدره على كشف العلاقة بين المصالح المعرفية والنظم المعرفية، وبهذا يتم الكشف عن الجانب النقدي في العقل الإنساني الذي يرتبط بمصلحة التحرر وعليه تتكشف الذات الإنسانية أو المجتمع على نفسه في شفافية يختفي بها كل ما هو غير معروف من أشكال الزيف الداخلي أو الخارجي، فلا يعود خاضعاً لأي قوى قامعة لحريته. وهكذا أيضاً أصبحت الفلسفة مع هابرماس هي التفكير النقدي بحيث أنها تكشف عن الشروط العامة لإمكانية المعرفة والفهم والفعل، كما بيّن دورها في عملية التحرر الفردي والاجتماعي من معيقات التشكل الذاتي ومقدرتها على تصحيح مسارات العلوم الأخرى حتى يكون السؤال الفلسفي: كيف يتم إشباع أبعاد الحياة الإنسانية بعدالة؟ تعد أخلاقيات الخطاب محوراً أساسياً في فلسفة هابرماس التوافقية لأنها تعمل على تطوّر خصائص كونية مثل العدالة والمساواة فمن الضروري إيجاد الظروف الملائمة لاندماج الأفراد في المجتمع وإقامة نظام اجتماعي مبني على معايير صحيحة "إن أخلاقيات الخطاب هي امتداد للبعد الأخلاقي الضمني الذي لم تعره النظرية النقدية الاهتمام المطلوب، والسبب يعود إلى عدم إيمان رواد النظرية النقدية من الجيل الأول بالعيش النزيه في خضم الوجود المتضرر (damage existence) و بالتالي فإنه مهما كان الأمر الأخلاقي واضحاً فثمة على الدوام مفارقات تحف به" (Finlayson,2005,p:76- 77).

تخلص هذه الدراسة إلى أن:

- بهذا التحول في الإطار المعرفي للنظرية النقدية عثر على النظرية الأقدر على تفسير جميع القضايا التي طرحتها الفلسفة الحديثة المعاصرة في شكل قضايا تم تأسيسها على الوعي ليتمكن من إيجاد مركز ثقل ابستمولوجيا علوم إنسانية تلتقي فيها اهتمامات الفلاسفة والعلماء وقادرة على إنشاء نظرية نقدية ترث مهمة الميتافيزيقا السابقة لتتجاوزها عند التفكير مثلاً في قضايا العقل والمعقولات والحداثة وتعثرتها وآفاق إنقاذها.

- إعادة الثقة بمشروع الحداثة التنويري بوصفه امتداداً لعصر الأنوار بالتمييز بين العقلانية الأداتية والعقلانية التواصلية في العالم المعيش والكشف عن محددات مستواه الثقافي والمجتمعي والشخصي.
- أصبحت الفلسفة مع هابرماس ضمن العلوم النقدية الأخرى والتي تكشف عن شروط إمكان المعرفة والفهم والفعل وأصبح لها دور في التحرر الاجتماعي من القيود اللاواعية والتي تعيق التأمل أو التشكّل الذاتي ودور آخر في تصحيح مسار العلوم الأخرى.
- بعد أن أدرك من مفهومي العمل والتعامل أن مقدرة الذات على تمثّل الأشياء والتحكّم فيها داخل العالم تفترض قبلياً علاقة بين ذاتية تتوسطها اللغة ولا يمكن إدراك العالم إلا من خلال هذه العلاقة بالتالي يكون النشاط الجوهري للإنسان، إذاً هو استعمال اللغة الذي يقيم علاقة بين ذاتية تتخذها الذوات المتكلمة والفاعلة حتى تتوصل إلى تحقيق التفاهم بينها بشأن موضوع متفق عليه مسبقاً.

التوصيات:

بناءً على نتائج هذه الدراسة توصي الباحثة بما يأتي:

1. إجراء دراسات مقارنة بين النظريات المختلفة للتعرف إلى التحولات المعرفية في كل منها.
2. العمل على تنمية الحس النقدي وتنوير العقل لدى أفراد المجتمع.
3. إجراء مزيد من الدراسات والبحوث للتعرف إلى التحولات المفصلية في الفلسفة المعاصرة.

References:

- Adorno. T (2004). **Negative dialectics**, London: Taylor & Frances e-Library.
- Adorno, T. and Horkheimer. M. (2006). **Dialectic of Enlightenment: Philosophical nuggets**, Trans: George Katoorah, 1st ed, Tripoli: Dar al kitab al jaded.
- Affayah. N., (1998). **Modernity and Communication in contemporary critical philosophy: Jurgen Habermas is a model**, 2nd ed Beirut: Africa East.
- Alkhouny. M., (2006). **Enlightenment and Criticism or The status of Kant in Frankfurt school**, 1st ed, Syria: Dar Alhiwar for publishing and distribution.
- Bronner. S., (2016). **Critical Theory: A very short Introduction**, Trans: Sara Adel, 1st ed, Cairo: Hindawi Foundation for Education and Culture.

- Dictionary. Cambridge.Org.
- Finlayson, J., (2005). **Habermas – very short introduction**, op. cit.
- Finlayson. J (2015). **Habermas: A very short Introduction**, Trans: Ahmed Alrouli, 1sted, Egypt: Hindawi Foundation for Education and Culture.
- Habermas, J., (1979). **Communication and the evolution of society**, Trans: Thomas MacCarthy, Bacon Press, Boston.
- Habermas, J., (1982). **the Entwinement of Myth and Enlightenment**, Op. cit.
- Habermas, J., (1984). **The Theory of Communicative Action**, vol: 2nd, op.cit.
- Habermas, J., (1996). **Between facts and norms: Contribution to a discourse theory of law and democracy**: William Rehg, Cambridge, MIT press, 2nd printing.
- Habermas, J (2001). **Knowledge and human interests**, Trans: Hasn Saqer, 1st ed, Germany: Al Gamal Publication.
- Habermas. J., (2003). **Technology and Science s Ideology**, Trans: Hasan Saqer, 1st ed, Germany: Al Gamal Publication.
- Hanafi. Q., (2007). **Stalin: Dialectic and historical materialism**, Arab Republic of Egypt: Damascus Publishing House.
- Hegel.F (2007). **Reason in history**,Trans: Eman Abdulfattah, 3rd ed, Beirut: Dar Al Tanweer for printing, publishing and distribution.
- Horkheimer. M., (1990). **The traditional Theory and the critical Theory**, Trans: Mustafa Alnawi, 1st ed, Casablanca: New success Publication.
- Marcuse.H (1970). **Reason and revolution: Hegel and the rise of social theory**, Trans: Fuad Zakaria, Egypt: The Egyptian Authority For authoring and publishing.
- Marcuse. H., (1988). **One dimension man**, Trans: George Tarabishi, 3rd ed, Beirut: House of Art.
- Marcuse. H (2011)., **Negative dialectic: Studies in critical theory**, Trans: Mujahid Abdulmeniem, 1st ed, Cairo: Dar Al Kalima for Publishing and Distribution.
- Musaddaq. H (2005) **Communicative critical theory: Jurgen habermas and frankfurt school, casablanca**: Arab cultural center.